

الحصون الصحراوية في الفترة الرومانية "ذراع الرمل أنموذجا"

Les forts sahariens de l'époque romaine «Draa R'mel comme modèle»

ط.د. / دبش سعيد

معهد الآثار / جامعة الجزائر 2.

البريد الإلكتروني: saaadd@hotmail.com

أ.د. / فيلاح محمد المصطفى

معهد الآثار / جامعة الجزائر 2.

البريد الإلكتروني: med.elmostefa.filah@univ-alger2.dz

الملخص:

تشكل حصون الفترة الرومانية أحد الحاميات العسكرية على تخوم الصحراء في شمال أفريقيا، التي تم توظيفها لحماية المدن الرومانية في الشمال من هجمات القبائل المحلية، وكذلك للمراقبة وحراسة الطرق التجارية التي كانت شريان الحياة لروما قديما. أي أن هذه المنظومة الدفاعية تعتبر الحد الفاصل بين الشمال والجنوب. وفي هذا المقال تطرقنا إلى حصن ذراع الرمل شمال منطقة أولاد جلال ولاية بسكرة كنموذج عن الحصون العسكرية الصحراوية في الفترة الرومانية، لما يتضمنه من تخطيط وسمات معمارية تعد وثيقة أثرية وتاريخية تعبر عن العمارة العسكرية الصحراوية وأهدافها.

الكلمات المفتاحية: حصن، ذراع الرمل، أولاد جلال، ليوة، التقنية الإفريقية، الليمس، سقي

الأراضي، الحمام.

Résumé :

Les Burgi (les fortins) de l'époque romaine aux limites septentrionales du désert forment une barrière défensive assez importante, contre les incursions des tribus locales, pour protéger les villes, et pour maîtriser les voies commerciales dans la région. Dans cet article, on s'intéressera au Burgi de Draa R'mel au nord de la région de Ouled Djellel de la wilaya de Biskra comme un exemple des Burgi sahariens durant l'antiquité.

Mots clés : fortin, Burgi, Draa R'mel, Ouled Djellel, Lioua, Opus Africanum, Limes, irrigation, bain.

لقد تأكد الرومان بأنهم إذا ما أرادوا أن يصبحوا حكاما لشمال إفريقيا لابد من تحطيم روح التحرر والثورة عند السكان الأصليين، والقضاء على تمردهم، فعليهم ان يضاعفوا انشاء المدن. والطرق للربط فيما بينها واستغلاله، هذا ما جعله مطمورة روما. وللتوفير الحماية لهذه المدن، والطرق والمزارع التي أنشأها الرومان؛ كان لابد من إستراتيجية عسكرية دفاعية. تتمثل في تحصين هذه المدن، وحماية منشآتها من القبائل المحلية، كما تساهم في بسط السيطرة. واتجه الرومان إلى تحصين التخوم مستشعرين الخطر الذي تمثله القبائل المحلية، مع التزامن التوغل الروماني غربا؛ وذلك بتطويق معازل المتمردين بالحصون والقلاع مع التوغل جنوبا حتى تخوم الصحراء¹. حيث جهزت شبكات من الطرق التي تضمن التحرك والمراقبة، تنطلق من لامبيز ستة طرق يتجه منها اثنان إلى سطييفيس (Sitifis)، وثلاثة إلى تيفاست (Theveste)، وواحد إلى جنوب الأوراس، وطريق آخر إلى كيرتا (Cirta)، وتوجد ثاموقادي على مفترق خمسة طرق، وتدل هذه الشبكة من الطرق على اهتمام الرومان بالمنطقة والتحكم فيها. وعند وفاة الإمبراطور نيرفا (Nerva) (96م-98م)، خلفه ترائانوس (Traianus) (98م-117م)، والذي لاحظ بان السفوح الشمالية الأوراس قد تكون مكاناً ملائماً لبناء المدن، وقام بفتح شبكات من الطرق وبناء الجسور وتأسيس مدن كبيرة مثل ثاموقادي سنة 100م، التي كانت لا تزال مركزاً عسكرياً². وواصل خليفته هادريانوس (Hadrianus) (117م-138م) مسيرته، حيث قام عند زيارته إلى أفريقيا ككل ونوميديا، بتبليط الطريق المؤدي من قرطاج إلى تيفاست وعند اعتلاء سبتيموس سيفروس (Septimus Severus) الحكم سنة 193م، حيث قام بإنجاز عدة طرق تشق نوميديا وموريطانيا ووصل ذلك التطور ذروته مع الأباطرة السفيرين³. وفي هذا المقال تطرقنا إلى موضوع الحصون الصحراوية في الفترة الرومانية⁴، واخترنا حصن ذراع الرمل كنموذج، فما هي المميزات والسمات المعمارية لهذه الحصن ؟ وما الهدف من انجازه؟

1- مفهوم النظام الدفاعي الروماني:

لقد أدرك الرومان وبشكل أكثر وضوح ان حماية حدود الامبراطورية لا بد من تنظيم خطوط دفاعية حدودية أكثر دقة هو "الليمس"، الذي أساسه شبكة معقدة من المعسكرات والقلاع والحصون والابراج والاستحكامات الاخرى، كالمنحدرات لكسر هجوم العدو وكشفه، لذلك اختيرت مواقعها على اساس استغلال التضاريس الى اقصى حد مما يفسر الشكل غير المنتظم لليمس. وبذلك حقق نظام الليمس الحد

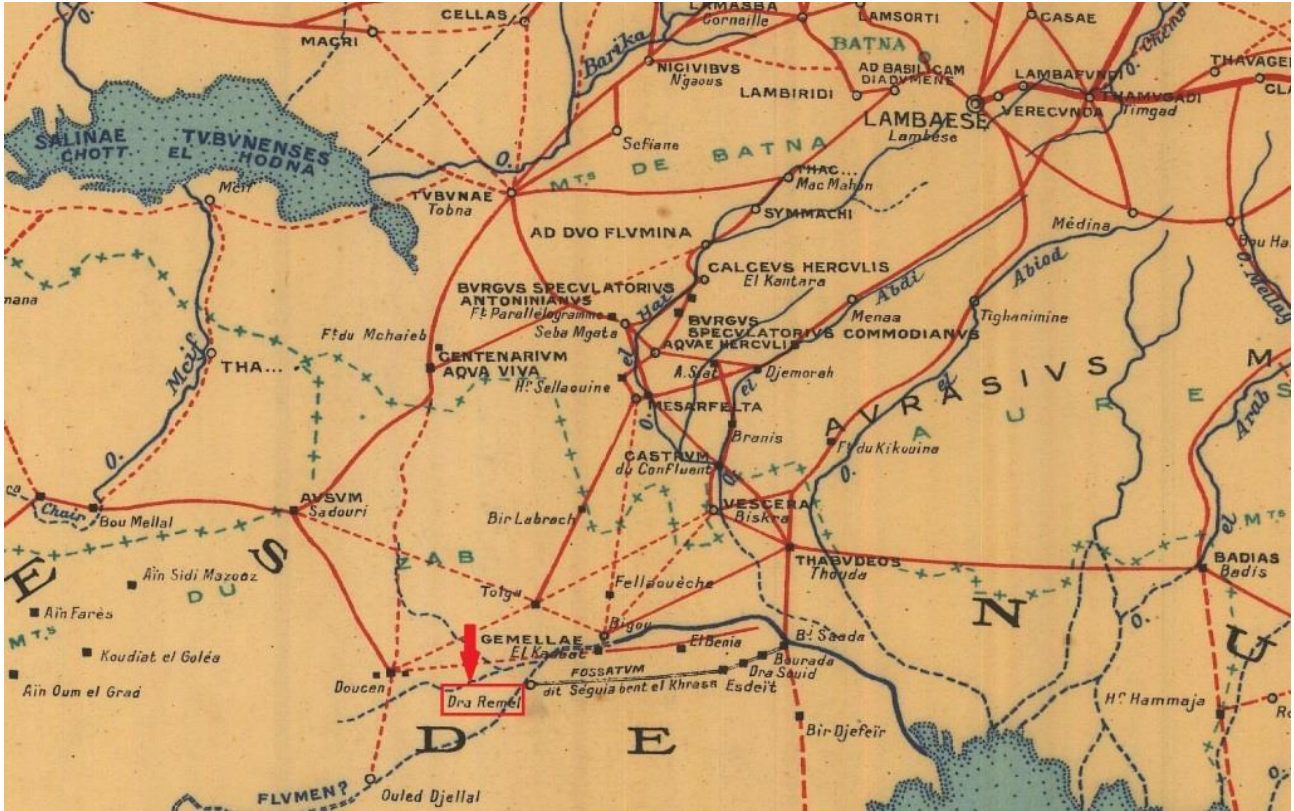
¹ - SALAMA, P., 1951, p. 27.

² - BALLU, A., 1897, p. 27.

³ - Ibid., p. 28.

⁴ - نذكر أ.د. حاجي ياسين رابح من معهد الآثار / جامعة الجزائر 2 على مراجعة النص، وعلى الإثراء المعرفي الذي خصنا به في هذا الموضوع.

الفاصل بين حدود الإمبراطورية الرومانية والقبائل المحلية كما كان يريده الرومان بنظام طرق وحصون منتشرة عبر امتداد كبير مكونا حاجزا بينهم وبين خصومهم من الشعوب الواقعة وراء ذلك الخط⁵. بذلك حقق نظام الليمس الحد الفاصل بين الحدود الإمبراطورية الرومانية والقبائل المحلية، كما كان يريده الرومان، بنظام طرق وحصون منتشرة عبر امتدادات كبيرة، مكونا الحاجز بينهم وبين خصومهم من الشعوب الواقعة وراء ذلك الخط (الخريطة 01).



الخريطة 01: تحصينات الجهة الجنوبية الغربية من منطقة الزاب. عن: SALAMA, P., 1947.

إنشاء الحصون في الفترة الرومانية بالجهة الجنوبية من منطقة الزاب:

ترجع فترة إنشاء منظومة الاستحكامات العسكرية في الفترة الرومانية في المناطق الجنوبية منذ عهد الأنطونيين، إذ أنشئوا معسكر "أد مايوراس"⁶ (هنشير بسرياني) عام 105م ثم معسكر جميلي⁷ (القصبات) ببسكرة عام 126م من أجل مراقبة هذه المناطق وتأمينها⁸. حيث واصلت الجيوش الرومانية تحصين نوميديا وموريطانيا القيصرية بإنجاز نوع من التحصينات ألا وهي الحصون (Burgi)، وهي

⁵ - تكيالين، محمد، 2011م، ص. 110.

⁶ - GSELL, S., 1911, F n°50, n° 152.

⁷ - Ibid., Fn° 48, n° 65.

⁸ - COURTOIS, C., 1955, p. 68.

حسب كانيا "معسكرات مصغرة مستطيلة الشكل بها أربعة أبواب"⁹. واعتقد لوبويك "أن لها أبراج أو قلاع صغيرة"¹⁰، بينما رأى ريشاردو "أنها أبراج مراقبة؛ يحيط بها خندق وسور"¹¹، فهي نموذج مكملًا للتحصينات في الفترة الرومانية كالمعسكرات والقلاع (Castellas)، التي استعملت لأداء مهام عسكرية¹². ويشير انه من صعوبة المكان تحديد عدد الجنود التي يسعهم الحصن، ويعرف في اللغة اللاتينية "بورغاري" (Burgarii)¹³. حيث تم الإشراف على انجاز الحصون مفرزات من كتيبة أغسطس الثالثة، والفرق المساعدة بجمال الأوراس ومتليي ثم الزاب¹⁴. يغلب عليها الشكل المستطيل او المربع خربة البرج. كما احتوت الكثير من هذه الحصون على أبراج مربعة عند الزوايا تدعيما للحراسة، ومراقبة المناطق المجاورة كما نشير إلى مساحة الحصون حوالي 600م² إلى 7000م². وقد تم إستغلال الحصون كمواقع متقدمة لحراسة المعسكرات، وحماية المصالح الرومانية¹⁵.

2- حصن ذراع الرمل:

ذكر الباحث قزال في أطلسه الأثري في الورقة 48 رقم 54، على وجود آثار رومانية وسمي بحصن ذراع الرمل.

3-1- الموقع الجغرافي: يبعد هذا الحصن عن بلدية ليوة / ولاية بسكرة بحوالي 16 كم جنوبا، وعن بلدية أولاد جلال بـ 23 كم شمالا، حيث يوجد على يسار الطريق الوطني رقم 61 الرابط بين مدينة أولاد جلال ومدينة ليوة.

الإحداثيات الجغرافية: حسب قوغل: 34°31'N / 5°17'17.34"E.

⁹ - CAGNAT, R., 1912, p. 683.

¹⁰ - LE BOHEC, Y., 1989, p. 111.

¹¹ - RICHARDOT, P., 1998, p. 122.

¹² - SALAMA, P., 1951, p. 32.

¹³ - صحراوي، عبد القادر، 2011م، ص. 98.

¹⁴ - شنييتي، محمد البشير، 1999م، ج. 1، ص. 128.

¹⁵ - صحراوي، عبد القادر، 2011م، ص. 98.



الصورة 01: صورة ساتليتيّة لتحصينات بين بلدية ليوة وبلدية أولاد جلال. عن قوقل إيرث.

أشار ستيفان قزال من خلال الأطلس الأثري في الورقة الخاصة بمنطقة بسكرة رقم 48 إلى وجود 14 موقع أثري بين مدينة ليوة ومدينة سيدي خالد، تحتوي على حصون عسكرية في الغالب، بين منطقة ذراع الرمل، وبين مدينة أولاد جلال نذكر منها : القمعة (Kef el Guemaa)، ومزا (Mza)، والوصيف=(الكاف الأصفر Kef El Asfer) (Eloucif)، وقربة (Guerba)، وقوزمير (Gueuzemir)، خربة القصير (Kherbet el Ksir). كما أشير إلى ساقية بنت الخص¹⁶ على أنها من ضمن منظومة الدفاع عن خط الليمس، حيث تربط سلسلة المواقع الدفاعية المذكورة غربا بحصون أخرى شرقا كحصن ذراع السويد¹⁷ وحصن البورادة¹⁸ وبرج السعدة (طير راسو) حيث تمتد هذه الساقية على مسافة حوالي 60 كم تتطلق من واد جدي غربا وتتصل به من جديد شرقا¹⁹. وكذلك منهم من يقترض أن هذه ساقية لعبت دور آخر غير العسكري في نقل مياه واد الجدي لسقي الأراضي الموجودة على ضفافها. ومن خلال معاينتنا الميدانية لهذه الخندق لم نجد لها تقريبا أي اثر. مجرد بقايا تشبه اساسات اسوار تنعدم في بعض الجهات غير ان

¹⁶ - GSELL, S., 1911, F48, n°69. ; BARADEZ, J., 1949, p. 93.

¹⁷ - حاجي، ياسين رابح، 2008م، ص ص. 310-312.

¹⁸ - GUEY, J., 1939, pp. 191-194.

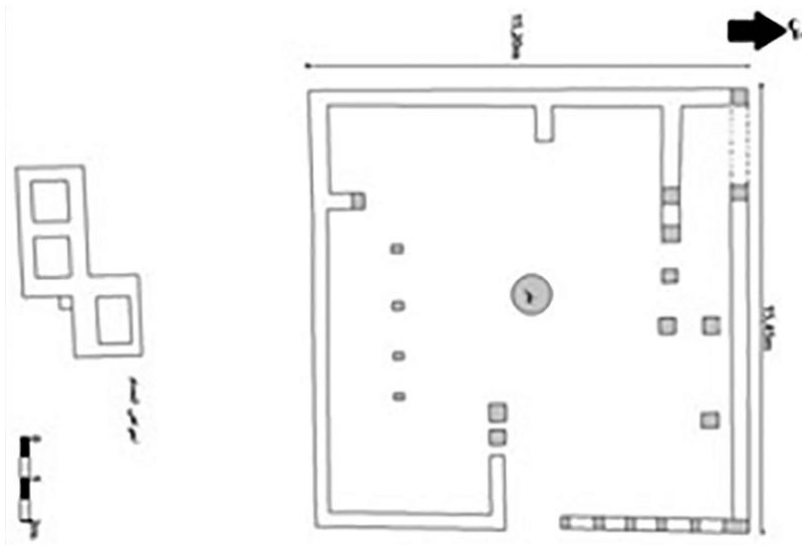
¹⁹ - Ibid., pp. 183-187.

الصورة من قوئل ارث تبين لنا اثار خط يمتد على الضفة اليمنى من واد جدي (الصورة 01، والصورة 02).



3-2-وصف الموقع من خلال المعاينة الميدانية:

كما تقدم به قاي²⁰ "أن المعلم نقب من طرف ملحقة بلدية بسكرة. الحصن ذو شكل مربع 15م في كل ضلع، في وسطه ساحة أبعادها 8.70م×5.70م، في مركزها بئر تعود للفترة القديمة بعمق 10م، مزود بمدخل في وسط الضلع الجنوبي-الشرقي، بالقرب من المدخل هناك بقايا عناصر معمارية مثل: عمود نصف مدمج، وبناية بالتقنية الإفريقية".



المخطط 01: مخطط حصن ذراع الرمل. عن: دبش سعيد.

Ibid., p. 183, note 02. ²⁰



الصورة 03: صورة عامة لحصن ذراع الرمل. عن: ديش السعيد.



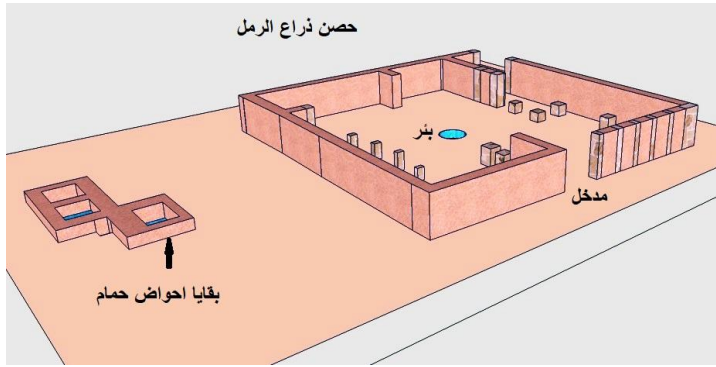
الصورة 04: الجهة الغربية من الحصن. عن: ديش السعيد.



الصورة 05: الجهة الشرقية من الحصن. عن: ديش السعيد.

المعلم ذو شكل مستطيل (المخطط 01)، تقدر أبعاده 15.45م/15.20م، ويتراوح سمك الجدار بين 0.40م و0.60م، وطول الجدران التي لا تتجاوز 1م. بنيت بحجارة مصقولة مع حجارة دبشية إذ نجد المزج بين تقنيتين التقنية الإفريقية opus africanum وتقنية الانكروتوم opus incertum.

يوجد به مدخل رئيسي يقدر بـ 1.90م يؤدي الى ساحة هذا المعلم فضاء مفتوح به بقايا أسس جدران لفضاءات على شكل غرف تحيط بالساحة، ويتوسط هذا المعلم بئر قطره 1.55م، والملاحظ في هذا الحصن انه لا توجد به أبراج في الزوايا (الصورة 03، 04، 05، 06).



الصورة 06: صورة

توضيحه ثلاثية الأبعاد
لبقايا الحصن باستعمال
قولل سكاتش اب. عن:
دبش السعيد.



نجد في الجهة الجنوبية من هذا الحصن
على بعد 6 امتار بقايا لحمام لم يبقى منه الا
3 أحواض مهدمه (**الصورة 07**)، وكذلك
تظهر لنا أعمدة ارضية الحمام من الاجر التي
تدل على طريقة التسخين بتقنية الهبوكست.
كما نجد انه استعمل الملاط المائي في بنائها
(**الصورة 08**).

الصورة 07: بقايا حوض الحمام. عن: دبش السعيد.

الفضاء المحيط بهذا الحصن يوجد العديد
من العناصر المعمارية بقايا لقواعد اعمدة.
احواض صغيرة للماء. بقايا مطحنة لطحن
الحبوب، قنوات ناقله للماء، بالإضافة الى
وجود بقايا للفخار من النوع السجلي، كما يوجد
بعض القطع النقدية في حالة تلف (**الصورة**
09، 10).



الصورة 08: عمود من الآجر تحت الحوض تستعمل بتقنية

تسخين الهيبوكست. عن: دبش السعيد.



الصورة 09: بقايا حوض يستعمل في سقي الأحصنة.

عن: دبش السعيد.

بالنسبة للحجارة المستعملة في البناء الحصن هو الحجر الرملي، أيضا من خلال معاينتنا الميدانية وجدنا محجرة رومانية لقلع الحجرة ما زالت آثار قطع الحجرة شاهدة على ذلك، تتواجد هذه المحجرة على

الصورة 10: بقايا قناة لنقل الماء. عن: دبش السعيد.

بعد 10 كم من الجهة الجنوبية الغربية للحصن، على الجانب الأيمن من الطريق الوطني رقم 65 الرابط بين أولاد جلال وليوة. (**الصورة 11**).



الصورة 11: صورة لبقايا المحجرة المتواجدة على الجهة الأيسر من الطريق الرابط بين أولاد جلال وليوة. عن: دبش سعيد.

3- قراءة في إستراتيجية هذه التحصينات من خلال المعطيات التاريخية والعمل الميداني:

يتضح لنا من هذه المعطيات الأثرية، أن موقع ذراع الرمل عبارة عن مركز عسكري متقدم؛ لتدعيم الحراسة من الجهة الجنوبية لمنطقة الزاب من أي خطر قادم من الجنوب. وتكمن أهمية هذه التحصينات وخاصة المتواجدة بين منطقة ليو واولاد جلال على حدود واد الجددي، في مراقبتها للممرات وردع وقمع السكان الثائرين، والحد من



تتقلاتهم ضمن نظام عسكري دائم ألا وهو الليمس²¹، والملاحظ على توزيع هذه التحصينات انها اتت على شكل خط واحد متباعدة فيما بينها بمسافة بين 3كم الى 5كم موازية لوادي جدي. كما انها مساحتها لم تكن كبيرة جدا اي ما تبين لنا هدفها الاساسي هو المراقبة، وكذلك نجد انها لها نفس الشكل والمخطط ونفس

الصورة 12: صورة لمعلم جنائزي من نمط بازينة بالجهة الجنوبية من واد الجددي.
عن: دبش السعيد.

تقنيات البناء المستعملة. وتجدر الإشارة الى تواجد عدد كبير من المنشآت الجنائزية المتمثلة في قبور البازينات تنتشر بالجهة الجنوبية خارج الخطوط الدفاعية وخاصة بمنطقة بلدية البساس، والغروس، وبئر النعام؛ وهذا دليل آخر على تواجد السكان المحليين بكثافة في هذه المناطق وتمسكهم بأراضيهم، ولعل هذا من أهم الأسباب التي جعلت الأنطونيين وبعدهم السيفيريين يسارعون إلى تعزيز المنظومة الدفاعية بالمنطقة والتكثيف من التحصينات والمراكز الأمامية للمراقبة، أي انه كانت حراسة الطرق إحدى الوظائف الهامة لهذه التحصينات (**الصورة 12**).

كذلك من خلال الدلائل الاثرية الموجودة بالموقع يدل على انه في بادئ الأمر انشأ الحصن لكي يحمي الجنود، ويزيد في توسع الاستيطان الروماني. ومع هذا الاستقرار كان لابد من توفير الطعام إلى الجنود، هذا ما أدى بهم إلى استغلال الأراضي المحيطة بالحصن. أي أن الجندي أصبح يمارس النشاط الفلاحي في أيام السلم؛ ليوثر قوته وهذا أيضا يدخل في تدعيم الجانب الاقتصادي الروماني، كذلك الحاجة المميزة في هذا الحصن وجود احواض حمام وهذا نادر ما نجده بالحصون الصغيرة بهذا الحجم.

²¹ - شنييتي، محمد البشير، 1999م، ص. 269.

4- الخلاصة:

نستخلص ان الدراسة لهذه المنشآت العسكرية تؤكد لنا ان هدفها الرئيسي من اقامتها هو:

- حماية الاقاليم الزراعية وكذلك مؤسسات الاستغلال الزراعي. كذلك تاريخ هذه المنشآت العسكرية مرتبط بحركة التوسع الاستيطاني في التل ومتزامن مع تطور الحاجة الى الارض الزراعية. تواجد هذه التحصينات دائما يكون بالقرب من الطرق الرومانية، فلقد كانت الطريق بالنسبة لروما أداة سيطرة واستغلال اقتصادي²².
- دائما يختار لها الأماكن الاستراتيجية التي تخدم مناعتها وتضمن السيطرة وتراقب حركات العدو من بعيد، دون تعرض الجند إلى الخطر المباشر المنشآت العسكرية تتمركز تقريبا في معابر البدو ومسالكلهم نحو التل فلهذا أقاموا تحصيناتهم بالقرب من معالم المياه وربطوا بينها وبين المعسكرات والمدن التلية والساحلية فبهذا برزت شبكة طرق محكمة التوجيه والنظام لعبت دورا أساسيا في سيطرة الجيش على حركة البدو.
- من الضروري أن يكون الماء متوفر بداخل التحصين، سواء بوجود منبع مائي أو توفيره بواسطة قنوات نقل المياه، أو التزود من النهر أو الوادي، أو يجهز التحصين بصهاريج لالتقاط مياه الأمطار²³.
- كذلك يجب ان نشير الى الاسراع في تصنيف وحماية هذه التحصينات من ايادي التخريب وكذا القيام بأعمال حفريات أثرية تساعد وتساهم في الكشف المزيد من الحقائق التاريخية.

²² - قداش، محفوظ، 1993م، ص. 168.

²³ - DIEHL, C., 1901, p. 238.

قائمة البيبليوغرافيا:

1. تكيالين، محمد، 2011م، "التواجد الروماني في الصحراء بين الإستراتيجية الدفاعية والمصالح الاقتصادية"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، 15، ص ص. 103-117.
2. حاجي، ياسين رابح، 2008م، البازيليكا المسيحية في مقاطعة نوميديا، دراسة أثرية وتنميطية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد الآثار.
3. شنييتي، محمد البشير، 1999م، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور، الجزائر، ج. 1.
4. صحراوي، عبد القادر، 2011م، التحصينات العسكرية بنوميديا وموريطانيا القيصرية أثناء الاحتلال الروماني 46ق.م-184م، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.
5. قداش، محفوظ، 1993م الجزائر في العصور القديمة الجزائر، ترجمة صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
6. BALLU, A., 1897, Les ruines de Timgad (Antique Thamugadi), Paris.
7. BARADEZ, J., 1949, Fossatum Africae, recherches aériennes sur l'organisation des confins sahariennes à l'époque romaine, Paris.
8. CAGNAT, R., 1912, L'armée romaine d'Afrique et l'occupation militaire de l'Afrique sous les empereurs, Paris.
9. COURTOIS, C., 1955, Les vandales et l'Afrique, Paris.
10. DIEHL, C., 1901, Justinien et la civilisation byzantine au VI siècle, Paris.
11. GSELL, S., 1911, AAA., F n°s 48, 50.
12. GUEY, J., 1939, « Note sur le limes romain de Numidie et de Sahara au IV siècle », in MEFR., pp. 191-194.
13. LE BOHEC, Y., 1989, La troisième légion Auguste, Paris.
14. RICHARDOT, P., 1998, La fin de l'armée romaine (248-476), Paris.
15. SALAMA, P., 1951, Les voies romaines de l'Afrique du nord, Alger.